لا يمكن أن يبدع الخائفون

عارف الحسيني

«إن الحياة تبدأ وتنتهي والقوى العظمى تعلو وتهبط، لكن الأمم عبر التاريخ هي التي تصنع المستقبل . . . إما مستقبلاً مضيئاً وأما مستقبلاً مظلماً، الأمر يتطلب القيادة الحكيمة التي تمتلك البصيرة، حرية الفرد، والإيمان، مع عدم الاستخدام الخاطئ للدين، والشعوب تقرر: إما مستقبلاً فيه المحمول و«النيو لوك» أهم الأساسيات، وإما مستقبلاً يكون فيه الرخاء الاقتصادي والفكري والبحث عن المعرفة هي الأساسيات».

(د. أحمد زويل، كتاب **عصر العلم**)

حصل العالم المصري أحمد زويل على جائزة نوبل للكيمياء للعام 1999 عن أبحاثه التي وضعت علم الفيمتو ثانية[1] بين العلوم الحديثة، هذا العلم الذي فتح المجال لمشاهدة الخلايا وهي تتكون، والروابط الجزيئية وهي تتشكل وتتفكك، في زمن لم يكن ذلك معروفاً قبله، وها هو اليوم يعد أبحاثه باستخدام المجهر ثلاثي الأبعاد، الذي بواسطته يأمل العلماء في التعرف على ما تبقى من أسرار الحبل الجيني. ولعل أهم ما لفت انتباهي في زويل جملته: «أما بالنسبة للإبداع ... فلا يمكن أن يبدع الخائفون».

والخائفون في نظري هم ليسوا أولئك المقموعين من سلطات تحكمهم فقط، بل الخوف الحقيقي هو الخوف الداخلي من الفشل، أو الجوع، أو الاختلاف، أو الانكشاف، والأدهى من ذلك هو خوف مدعي المعرفة من الجهل الذي لا يعرف عن وجوده داخله سواه.

قدم زويل للرئيس مبارك رؤيا كاملة للنهوض بالواقع العلمي والمعرفي والصناعي في مصر قبل أكثر من عشر سنوات، وكان يعتمد على بناء مراكز علمية إبداعية للشباب الموهوب، وبالطبع لم يكن هذا من أهداف النظام الحاكم، فبقي زويل يمارس أبحاثه في أمريكا، وقبل أيام سقط مبارك.

يكابر الكثيرون من التربويين والمثقفين والأكاديميين ورؤساء الجمعيات وقادة المجتمع المدني وملوك الأروقة السياسية، ويدعون المعارف المطلقة، على الرغم من شح الوقت لديهم للخوض في التفاصيل المهمة، حتى لو وجد الوقت، فإن «ضيق الخلق» يمنعهم، وإن وجد الوقت والخلق، فإن «الأنا» العليا تتدخل لتصف البحث المتواصل عن المعرفة بالإهانة الكبرى، فتراهم يكتفون بقراءة الملخص على الغلاف الخلفي لأي كتاب، ويمرون سريعاً على الأخبار الصحافية والمجلات ليطلقوا الفتاوى وكأنهم جهابذة العصر.

وفي واقعنا الفلسطيني يتسابق الجميع على الإبداع والريادة، وتتهافت

المؤسسات الرسمية والأهلية على قطف ثمار شجرة غير موجودة أصلاً، فالجميع يريد أن يكرم المبدعين بالجوائز، أو يتبناهم على فرض أنهم ولدوا مع الموهبة، وتخطوا مرحلة الفكرة وحدهم، وأنهوا فترة الكمون وحدهم، وأتوا بالحل العظيم «يوريكا»، والآن هم بحاجة فقط إلى من يأخذ بأيديهم نحو تغيير حياتهم بتحويل ما توفر لديهم من مواهب بالفطرة والصدفة إلى مشروع ناجح حسب معايير المستثمر أو الممول.

كل هذا في ظل وجود نظام تعليمي مدرسي وجامعي عاجز تماماً عن إنتاج المبدعين، ومجتمع محلي محيط لا يؤمن إلا بالمسار التقليدي في خط سير الحياة: مدرسة – توجيهي – تعليم أكاديمي – وظيفة – بناء بيت فوق دار العائلة – زواج – أولاد – تربية على المسار نفسه ... وهكذا دواليك. لذا، نجد أغلب الإبداعات المحلية المبتدئة في العلم والتكنولوجيا تتطاير بعد انتهاء حفلة التكريم.

ولكن من معرفتي العميقة بالنظام التعليمي، أعلم جيداً أن تغييره اليوم هو مثل إزاحة جبل راسخ منذ قرون من مكانه. لذا، وفيما يتعلق بالإبداع، فإنه في الوقت الحالي يجب على آخرين أخذ زمام المبادرة لمنع ضياع المواهب الناشئة كل يوم. إن لتنمية للإبداع، بأشكاله كافة، وفي ظل المناخ المجتمعي والتربوي الحالي، ثمناً باهظاً يجب بداية على أولياء الأمور دفعه باختيارهم، وبعدها على المؤسسات والفعاليات الأهلية متابعة الدرب، ولكن بجميع الأحوال ليس على الطفل أو الطالب المبدع تحمله، حتى لا يثقل كاهله بسبب الضغط من جميع الجهات عليه.

جميعنا يدعي أن فلذة كبده متميز ومبدع، وفي رأيي الغالبية العظمى منا واهمون، ولكن بالنسبة للأقلية المبدعة حقيقةً، فكيف نريدهم أن يصقلوا الموهبة دون وجود إطار يدعمهم داخل المدرسة التي تشغل معظم وقتهم، ومع إصرار الأهالي على أن يقوموا بواجباتهم المدرسية كافة، وأن يحققوا العلامات الكاملة، وأن يتفوقوا في النظام التلقيني التحصيلي، والذي لا شأن له بإبداعهم، وبعد ذلك كله نريدهم –إن بقي وقت وطاقة– أن يهتموا بالموهبة والإبداع؟ من منا يقبل عن وعي واختيار أن يكون ولده متوسطاً في المدرسة ولكن مبدع بالميكانيك؟ ومن يرضى أن لا تتقدم ابنته لامتحان الجغرافيا بسبب تزامن يوم الامتحان مع حفلة العزف على الكمان الذي تعشقه؟

نحن نتعامل مع موضوع رعاية الإبداع والريادة وتحويل المجتمع إلى مجتمع معرفي يؤمن بالإنتاج، وكأننا نخترع العجلة من جديد، وننسى تجارب الآخرين مثل ماري روبنسون في أيرلندا، وتجربة سنغافورة، والهند، ومهاتير محمد في ماليزيا، ونتمنى أن ننشر بعد عشرين سنة «تجربة فلسطين».

يمكننا فقط أن نحذو حذوهم مع خصوصية طريقنا حتى نلحقهم، ولربما نسبقهم أيضاً، مهاتير محمد الذي حوّل ماليزيا من دولة عالم ثالث فقيرة إلى دولة لها وزنها في الصناعة والاقتصاد خلال أقل من عشرين سنة، أصدر رؤيته الحكيمة التي سماها ماليزيا 2020 في ورقتين لا ثالثة لهما، بدأهما في حلم أن يولد ماليزي اليوم، وعندما يكبر لا تكون ماليزيا دولة نامية، وتلا ذلك بتسع نقاط تلخص كيفية تحويل البلد إلى ما يصبو إليه، أود أن أتوقف عند النقطة السادسة،

من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».

وهي محور حديثنا، وهي ما اختص وأحلم به:

«التحدي هو بإنشاء مجتمع علمي قابل للنمو، مجتمع مبدع وينظر للأمام، وهو ليس مستخدماً فقط للتكنولوجيا، بل قادر أيضاً على المساهمة في الحضارة العلمية والتكنولوجية المستقبلية».

ولكن لا يمكن تحقيق هذه النقطة إلا ببنائها على أسس أخلاقية عامة، وقيم نؤمن بها ونمارسها، أهمها الأمانة العلمية، وحسن تقدير الذات، لتكون تلفظاتنا وتصريحاتنا بحجم معرفتنا الحقيقية، وليست متضخمة حتى حدود الخيال العلمي.

هذا هو التحدي في فلسطين أيضاً، ومن أجل إنشاء مجتمع المعرفة المنتج، نحن أحوج ما نكون إلى تغيير النظام التعليمي السائد ليبتعد عن التلقين والتحفيظ، وينتقل إلى الفهم والتحليل، لأن المعارف لم تعد حبيسة الكتب، وكل معلومة نحتاجها يمكننا أن نحصل عليها بسهولة فائقة عبر الإنترنت، وفي أي مكان نكون فيه بواسطة الهواتف المحمولة، ولكن يبقى السؤال المطروح هو: كيف نتعامل مع هذه المعلومة؟ وكيف نراكم كماً من المعلومات والمهارات والقدرات التحليلية التي تحقق الفهم العميق والمطلق من أجل الإبداع والإتيان بالجديد الذي ندخره كرأسمال معرفي؟

في رأيي، يبدأ الحل بتربية النخبة المحلية على الامتياز وليس على الكمال، ولا نقصد هنا تلك النخبة البرجوازية أو السياسية، بل النخبة التي تمتلك المهارات الأساسية والموهبة الحقيقية (والتي تعد أبرز متطلبات الحل) بغض النظر عن المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي، وتبدأ مسؤوليتنا باكتشافهم منذ نعومة أظفارهم، ووضعهم في إطار رسمي يحترم تفكيرهم، ويلبي رغباتهم، ويربيهم على خدمة الوطن وعشق ترابه، من خلال الفهم لا التحفيظ، وأن نوجههم لتعلم المهارات القيادية في ميادين مختلفة حسب ميولهم، وبالتنسيق مع حاجات دولتنا المستقبلية، من خلال خطة دقيقة ورؤيا نافذة، وأن نمنحهم المعرفة الحقيقية بدقائق تخصصاتهم، وأن نسهل طريقهم وندعمهم للالتحاق بجامعات عالمية مرموقة تصقل معارفهم، وأن نعيدهم بعدها ليلتحقوا بمؤسسات الوطن بوظائف قيادية يستحقونها بكفاءاتهم لا بالواسطة والمحسوبية، ويحصلوا على ما يستحقون من احتياجات الحياة الكريمة، حتى يتخطوا حواجز الخوف الداخلي والخارجي.

إنني أؤمن بالمرحلة التاريخية التي تمر بها مسيرة بناء دولتنا الديمقراطية المستقبلية، والتي يحترم فيها بعضنا الآخر، بعيداً عن القبلية، والحزبية، وصغائر الأمور، وهذا لا يبنى إلا بالأفراد الذين يتقاسمون الحلم، وللأسف هم ندرة نادرة في الوطن، وهم أصلاً، وإن وجدوا، لا يشاركون باتخاذ القرار، لأنهم ليسوا في دائرة القيادة، ربما لأننا ما زلنا نختار قياداتنا بناءً على ما فعلوه في الماضي، وليس على ما يستطيعون فعله في المستقبل.

هذا البرنامج سوف نقطف ثماره بعد خمسة عشر عاماً، عبر مسيرة تخلو من الاختصارات والقفزات عن أي مرحلة من المراحل، ولكن النتائج هي بالضرورة مضمونة، تتطلب هذه المرحلة أن نتبنى آلاف الموهوبين في أطر خاصة دون البهرجة الإعلامية، وأن نرافقهم بعلم وحذر، حتى يتخطى نصفهم جميع المراحل، ويعود ربعهم ليبني فلسطين الحقيقية التي نتمناها، فتخيلوا ما يمكن فعله مع ألف عالم فلسطيني في مجالات مختلفة مشبّعين بالوطنية، ولا يمكن شراؤهم أو المتاجرة بمواقفهم، ويدينون بما وصلوا إليه للدولة التي صنعته.

بعد خمسة عشر عاماً، ربما لن نكون موجودين، ولكن واجبنا التاريخي يحتم علينا أن نبذر بذور المستقبل، لقد اختار الشعب الفلسطيني طريق الاستقلال والتخلص من الاحتلال، ورفض أن يمحى أو يذوب في شعوب ودول أخرى، ولقد رفعت قيادتنا راية بناء المؤسسات، ولا أعتقد أن هناك اثنين يعارضون المبدأ، ولكن المؤسسات تحتاج إلى البشر حتى يرفعوها، وبخاصة أن الخامة البشرية المتوفرة اليوم التي ننتجها بنظامنا التعليمي والاجتماعي الحالي لن تلبي الحاجة، ولا يمكن استيراد خامة دائمة أبداً، في هذا الوضع المتزايد في التعقيد، نحن أحوج ما نكون إلى تذويت حبنا لمن لم يولد بعد، ولا نستطيع التقدم دون اتخاذ القرار، بأن هناك ناتجاً بشرياً أفضل يمكننا تصديره لمؤسسات الوطن، ولكن بناء الإنسان هو أصعب من بناء الحجارة، والمؤسسة الحقيقية ترفعها العقول والأدمغة وليس الجرّافات فقط.

مدير عام مؤسسة النيزك للإبداع العلمي – القدس

الهامش:

[1] الفيمتو ثانية (Femtosecond): هو جزء من مليون مليار جزء من الثانية أي (عشرة مرفوعة للقوة 15-) والنسبة بين الثانية والفيمتو ثانية هي النسبة بين الثانية و32 مليون سنة.

وأول استخدام عملي لهذه الوحدة كان ابتكار نظام تصوير من قبل العالم المصري الأمريكي أحمد زويل يرصد حركة الجزيئات عند نشوئها وعند التحام بعضها ببعض، والوحدة الزمنية التي تلتقط فيها هذه الصورة هي الفيمتو ثانية، وذلك حينما أراد أن يصور بالضبط ما يحصل خلال التفاعلات الكيميائية، وقد كان هذا الشيء مستحيلاً قبلاً، لأن هذه التفاعلات تحدث بسرعة كبيرة جداً، وعند تسليط الضوء على هذه التفاعلات يسبب الضوء تشتت الإلكترونات فلا يمكن حينها تصوير تفكك الروابط بين المركبات أو إعادة ترابطها معاً، ولكن د.أحمد زويل تمكن من تسليط أشعة الليزر على التفاعلات وتصويرها بكاميرات دقيقة تمكنت من التقاط ما يحدث في جزء من مليون مليار جزء من الثانية.

(المصدر: http://ar.wikipedia.org/wiki)